يوم حارٌّ جداً

منى محمد العمد - الأردن

بناديها طفلها بصرخات متتالية، توحي بأن الأمر عاجل جدا. رمت من يدها اللعقة التي تحرك بها ما تطهوه وركضت إلى فناء المنزل. إنه يقف ليس حوله شيء لكنه لا يزال يصرخ ويرفع يديه إليها. مرت ثوان قبل أن تدرك أنه يريدها أن تحمله تخليصا له من حرارة الرخام التي أحرقت باطن قدميه الصغيرتين. حملته ودخلت به وأخذت تغسل قدميه المحمرتين بالماء البارد وهي تقول: كم من مرة قلت لك ألا تخرج حافي القدمين هكذا؟ ثم لا أدري ما الذي يخرجك من الغرف المكيفة في هذا الجو الخانق. حتى القطروز لا يخرج من بيته الآن.

عادت إلى المطبخ. وهي تقول: الجو حار جدا. إنه لا يطاق حتى مع وجود التكييف. سبحان الله. كأنها نفخة من جهنم!

استدركت قائلة: لكنه مع ذلك أهون مما حدث. هذا الحر الشديد يمكن تخفيفه بالماء البارد ومكيف الهواء، لكن الذي لا يمكن أن يطاق هو حرارة القلب من تنكر من كانت يوما تعتلبهم أهلا وأحبة!

قال لها زوجها وهو يحاورها ويقطع بعض الخضار: هوني عليك. ألم تكوني تقولين من قبل بأن الدنيا لن تصدمك من جديد؟ وأنك أصبحت تتوقعين كل شيء وأي شيء من أي أحد؟ حتى من أولئك الذين أحسنت إليهم؟

قالت في غمغمة: نعم نعم، لكن، إلا هذه، إلا هذه.

- ولكن ماذا يميزها؟ أليست واحدة من البشر؟

- وأنت من يسأل؟ ألا تعرف أنت مواقفي معها؟ ألا تعرف صدق مودتها. أضافت مستدركة: بل صدق مودتي أنا. وقد أثبتت الأحداث أن مودتها كانت مصنوعة وإلا لم تنقلب في لحظة هباء منثورا!

لا أصدق أن تتنكر لي هكذا. أهذه التي كنت أدعوها الغالية؟ هل نسيت كل ما فعلته من أجلها. هل لأن المصلحة انتهت الآن بيننا؟

هل الدنيا كلها هكذا حسابات ومصالح ليس إلا؟

- هوني عليك. كل شيء يتوقع هذه الأيام.

- ماذا تعني. هل يجب أن أمشي وأنا أحمل درعا وأتلفت في كل اتجاه مخافة أن تأتيني ضربة من هنا أو هناك؟ أي حياة هذه؟

- هذا لا يعني أن كل الناس على هذه الشاكلة. ثم لعل لها عذرا وأنت تلومين.

- أي عذر لها في أن تجبن عن نصرتي حين احتجت إليها. أنا لم أطلب مالها. لكني ما توقعت منها أن تضع الخذلان محل النصرة.

- هل أنت حزينة لفقدها؟

- ربما. لكن صدقني ليس هذا هو المهم الآن. إنما هي واحدة من الناس لا أكثر. لكن المبدأ هو ما أهمني.

- الدنيا لا زالت بخير. ما بك؟

- كيف؟ ألم تقل قبل قليل يجب أن أتوقع كل شيء من أي أحد؟ وخاصة ممن أحسنت إليهم!!

- حبيبتي. نعم يجب أن نتوقع. لكن ليس هذا هو الأصل في الأشياء.

- فما الأصل في الأشياء إذن. أخبرني. أكاد أفقد توازني؟ هل الأصل ألا أثق بأحد أبدا؟!

- ألا تظنين أن الطعام قد نضج؟

- (وهي تطفئ النار تحت القدر) يبدو ذلك. النار تنضج كل شيء. وتحرق كل شيء. ولا يبقى سوى الرماد. حتى هذه الأخوة الكاذبة لا يبقى منها سوى الرماد.

- متابعا: الأصل أن الإحسان جزاؤه إحسان مثله. هذا كلام الله تعالى.

أضاف مسترسلا: ولطالما استعبد الإنسان إحسان.

- وهذا كلام الشعراء الذين يتبعهم الغاوون. هل يجب أن أقسم ألا أحسن لأحد أبدا؟

(صوت الجرس) من يأتينا الآن في رابعة النهار.

وفي هذا الحر الشديد من يخرج من بيته؟

- أبي. بالباب رجل يبدو أنه عامل باكستاني أو بنغالي يسأل: هل هذا بيت ناصر؟ ويسأل: إن كنا نعرف أين بيته؟

قالت: يا لله. هل يركب سيارة؟

- يركب دراجة هوائية؟

قال الزوج: أخبره بأننا لا نعرف منزل ناصر هذا.

قالت الزوجة في إشفاق شديد: انتظر. خذ له معك زجاجة ماء باردة. المسكين. كان الله في عونه. حانت منها التفاتة نحو القدر فقالت لولدها وهي تتبعه: قل له أن ينتظر. ثم سكبت له طبقا من الطعام وأرسلته إليه.

تبسم زوجها وهو يقول: الحمد لله أنك لم تتسمي وإلا لقد استوجب الأمر كفارة. وأضاف متوددا: ولكنت دفعتها راغما. نظرت إليه بتصنع ابتسامة عاتبة لا تخفي الكثير من الألم. قال كالمعتذر: بل أدفعها راغبا يا سيدتي. المهم أن ترضي أنت. ولكن هل لي أن أسألك: لماذا أحسنت إلى الرجل؟ وهل تنتظرين منه أن يكافئك على صنيعك؟

- مطلقا. وماذا نريد من مثله؟ إنه مجرد عابر سبيل يمضي لشأنه. أعانه الله.

ومضت ترتب المائدة وهي تدعو الأولاد لغسل أيديهم استعدادا لتناول الغداء.

في المساء دق الجرس. قالت لزوجها: يبدو أن ضيوفنا قد وصلوا. خرج لاستقبالهم وعاد إليها وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

سألت: ما الأمر؟

- تعلمين من بالباب يا عزيزتي؟ إنه العامل الذي أطعمته وسقيته اليوم. جاء ليقدم شكره وأهدانا ثلاثة صناديق من فاكهة الصيف النادرة ويقول: إنه يعمل في سوق الخضار فإن احتجتم شيئا من هناك فسيسره أن يخدمكم ■